الخاتمــة

لعبت العصبة الهانزية دروًا بارزًا فى الحياة التجارية فى أوروبا العصور الوسطى لما يزيد على قرنين من الزمان، وذلك منذ أن تطورت تلقائيًا بسبب الظروف البيئية التى مكنتها من ذلك ، فقد ظهرت طبقة جديدة وهى طبقة التجار مع الهجرة الألمانية الكبرى إلى الأرضى السلافية جنوب البلطيق. فقد كانت أوروبا الشمالية فى العصور الوسطى مكانًا ملائمًا لتطور عملية التجارة المنظمة التى تقوم على مسافات طويلة، وأيضًا فإن استقلالية أمراء ألمانيا منحهم الفرصة لتشجيع التبادل الاقتصادى المثمر، وقد غرزت فرص الربح روح المغامرة بين التجار الجدد والأحرار، أما المجارى المائية التى كان الوصول إليها أمرًا سهلا وسفن الشحن الجديدة فإنها أغرت التجار المستقلين حيث ان الممالك الضعيفة تجاريًا قامت بمنح امتيازات تجارية لهم، ومن ثم فقد برزت الهانزا من غير تدبير سابق أو استعداد كاستجابة اقتصادية لهذه الحوافز البيئية.

ولم يكن للهانزا خطة كبرى تسير عليها، فقد حدث تطورها ونموها تلقائيًا ولم يكن تحت رعاية أى كيان سياسى موحد كما لم يمنعها أى كيان سياسى، وطبيعة نشأتها هى أعظم دليل على ذلك على عكس غيرها من المنافسين فقد قام بها تجار مغامرون. وعليه فقد تمكنت العصبة الهانزية من خلال السعى الحثيث للتجار الألمان من الحصول على حقوق تجارية متميزة والحفاظ عليها فى الدول الأجنبية، ومن ثم فقد قاموا ببناء كيان فاق مصالحهم الفردية وتعدى الحدود الإقليمية.

وهكذا نمت العصبة الهانزية حتى غدت تتحكم فى عدد كبير من السفن والأساطيل، كما صارت لها السيطرة الاحتكارية على تجارة شمال أوروبا، وبخاصة بحر البلطيق الذى أصبح مركز قوتها ومحور نشاطها.

تمكنت العصبة كذلك من إقامة عدد من المراكز الخارجية كانت بمثابة محطات تجارية تدير منها مهامها التجارية والتى تمثلت فى مراكز لندن وبروج وبيرجن ونوفجورود والتى أصبحت بمثابة مراكز أساسية لعمليات التبادل التجارى، خاصة أن الهانزا كانت تحتاجها كمحطات آمنة لنشاطها

ثم تعود منها لوطنها الأم ثانية وقد أثبتت هذه المحطات فاعليتها فى المحافظة على امتيازاتها الخارجية فى تلك الدول إلى جانب احتكارها لتجارة سلع هذه المناطق التجارية.

اهتم تجار الهانزا بتحقيق وسائل للدفع الاقتصادى لتجارتهم من خلال قيامهم بتوفير وسائل لتأمين التجار وحمايتهم فى رحلاتهم التجارية وتسابقوا فيما بينهم من أجل الحصول على المكاسب التجارية وتأمين سفنهم من الأخطار التى تعرض لها التجار فى أوروبا العصور الوسطى كالتخلص من (حق حطام السفن)، الذى كان من الممكن أن يخسر التجار بضائعهم بسببه. كما اتخذوا كل وسيلة ممكنة من أجل الحفاظ على امتيازاتهم التجارية وإقامة مقار لهم تستخدم كمستودعات لتجارتهم.

تتضح أهمية هذه العصبة كذلك فيما حازته من قوة مكنتها من فرض العقوبات على من يخالفها حتى ولو كان من أعضائها مطبقة بذلك لقوانين الحظر والحرمان والمقاطعة وكلها أسلحة أثبتت فاعليتها، بل ونجحت فى التصدى لضعف الملوك ومواجهة كل من يحاول حرمانها من امتيازاتها التجارية أو إعاقة نشاطها التجارى مثلما حدث مع الملك فالديمار الرابع ملك الدانمارك حيث تمكنت من هزيمته وتحول أعضاء الهانزا إلى نسور مرعبة تثير الفزع فى قلوب معارضيهم.

نجحت الهانزا من خلال احتكارها للتجارة والسلع التجارية من تحقيق ازدهار اقتصادى ليس له مثيل ولا يضاهيها فيه، إلا المكانة التجارية التى حازها تجار المدن الإيطالية، وتمكنت من الاهتمام بتطور النظم والمعاملات المالية كإيجاد عملة موحدة مشتركة لمدنها والعمل على التوسع فى استخدام الحوالات والأوراق المالية والعناية بالشركات التجارية التى لا غنى عنها لنمو التجارة. وكانت قوتها العسكرية بمثابة الدرع الواقي لتجارتها إذ لم تستخدمها إلا فى أضيق الحدود وذلك عند استنفاذها لكافة الطرق الدبلوماسية؛ إلى جانب نجاحها فى النهوض بمستوى الحضارة فى شمال أوروبا بما قامت به من تعبيد الطرق وتأمينها وشق القنوات والترع وإقامة الكنائس وتشجيع العلوم والآداب ورعاية مصالحها التجارية.

وهكذا نرى أن اتحاد العصبة الهانزية كان بمثابة أقوى اتحاد تجارى ظهر داخل أوروبا العصور الوسطى فهو جدير أن يكون مثلاً يحتذى به الآن إذ أن هذه الوحدة السياسية للتجار شكلت تحالفًا اقتصاديًا ناجحًا من الأعضاء المخلصين الذين أثبتوا وجودهم فى عالم العصور الوسطى وكانوا قادرين على الدفاع عن حقوقهم إذا لزم الأمر، وربما نستطيع أن نرى بعض التشابه بين هذه العصبة وبين السوق الأوربية المشتركة حالياً.